ملاحظات حول الانسحاب الصهيوني من غزة

الانسحاب الإسرائيلي من غزة، وتفكيك حوالي ٢٣ مستعمرة في القطاع؛ بالإضافة إلى ٤ مستوطنات في الضفة الغربية أو ما يسمى بخطة فض الاشتباك أحادي الجانب، والذي تم مؤخراً رغم اعتراضات واحتجاجات واسعة النطاق من اليمين الديني الصهيوني، وبعضاً من اليمين العلماني مثل استقالة نتنياهو، هذا الانسحاب يقتضي بالطبع التأمل في معناه ومغزاه، وكذلك في التداعيات المتوقعة فلسطينيًا وإسرائيليًا وإقليميًا ودوليًا، لماذا تم الانسحاب أساساً، ولماذا تم في هذا التوقيت، وكيف أدارت إسرائيل المسألة، وما هي خطتها للاستفادة من هذا التراجع غير المسبوق في المشروع الإسرائيلي الصهيوني.

بداية؛ فإن قطاع غزة كان الأكثر تكلفة على الاحتلال الصهيوني أمنيًا واقتصادياً وسياسياً منذ احتلاله مع الضفة الغربية عام ١٩٦٧، وهو الأكثر إفرازاً لجماعات العنف وحركات المقاومة ضد إسرائيل، وكم تمنى الإسرائيليون بمن فيهم بيريز ورابين وبيجن "اليسار واليمين" أن يصحوا من النوم يوماً فلا يجدون هذا القطاع موجوداً على الخريطة على حد قول رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إسحق رابين أو أن يتم اقتطاع هذا الجزء من الأرض وإلقاؤه في البحر على حد قول مناحم بيجين رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، تبلغ مساحة قطاع غزة ٣٦٥ كيلو متر مربع وهو يمثل ١ % من مساحة فلسطين التاريخية، و ٦ % من مساحة الأراضي التي احتلت عام ١٩٦٧ "الضفة الغربية وقطاع غزة"، يعيش في هذا القطاع ٣ و ١ مليون نسمة، أي أن الكثافة السكانية في القطاع هي الأعلى - ربما في العالم. وهو قطاع فقير في الموارد الاقتصادية والطبيعية. وهكذا فإن القطاع كان ذو تكلفة أمنية عالية على الكيان الصهيوني ومن ثم فإن الانسحاب كان لهذا السبب أولاً،

ثم تحت ضغط عمليات المقاومة والانتفاضة الفلسطينية ثانياً، ثم لتطور الأوضاع الدولية والإقليمية ثالثاً.

من ناحيته فإن رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك شارون أوضح أكثر من مرة، آخرها في خطابه عند بدء عمليات الانسحاب ٢٠٠٥/٨/١٥، أن سبب الانسحاب هو تحقيق الأمن لإسرائيل، لأن حماية المستوطنات في غزة كان باهظاً جدًّا؛ فحماية ٥٣ عائلة في مستعمرة نتساريم مثلاً كان يقتضي وجود كتيبتين إسرائيليتين، وكان من الممكن أن يتحول المستوطنون في المستوطنات الصهيونية في غزة بالذات إلى رهائن في يد الفلسطينيين إذا ما اندلعت انتفاضة شاملة وسقطت قبضة السلطة الفلسطينية مثلاً، المهم أن خطة شارون الأمنية والتي اقتضت بناء جدار عازل بتكلفة ٨٠ مليون دولار يكون بمثابة السور حول إسرائيل لحمايتها من العمليات الفدائية، لا يستقيم معها وجود تكتلات سكانية خارج هذا الجدار، وهكذا فإن الدافع الأمني هو أولاً وأخيراً الهدف من الانسحاب، من ناحية الولايات المتحدة، فإنها سوقت إعلامياً للحديث عن انفراجة في السلام، كرشوة في مواجهة منطق الإرهاب، ويعتقد بوش أن الانسحاب سيقود إلى السلام والتغلب على الإرهاب.

نصر للمقاومة الفلسطينية

وهكذا فإنه إسرائيليًّا وأمريكيًّا؛ فإن الهاجس الأمني كان هو السبب المباشر في هذا الانسحاب، وهكذا فإن من حق المقاومة الفلسطينية أن تفخر بأنها أجبرت إسرائيل على الانسحاب وأن الذي حدث هو نصر كبير للمقاومة، ويثبت أن المقاومة وحدها هي الطريق إلى التحرير وليس المفاوضات. ومن المثير هنا أن نقول: إن أريل شارون اختار الانسحاب بدون التنسيق مع السلطة الفلسطينية ولا الدول العربية ودون توقيع اتفاق ما معها، لأنه يعرف أنها أصلاً ليست طرفاً في الموضوع؛ فالصراع بينه وبين حركات المقاومة والشعب

الفلسطيني المنتفض، ومن ثَمّ فإن هذه الحكومات لا تقدم ولا تؤخر في الموضوع، ثم إن عدم توقيع اتفاقات مع السلطة أو الحكومات العربية لا يجعله ملتزماً بشيء، إذا ما خفّت حدة المقاومة والانتفاضة، وأرادت إسرائيل أن تحتل قطاع غزة من جديد مؤقتاً أو بصورة دائمة، وهكذا فإن إصرار حركات المقاومة "حماس والجهاد وكتائب شهداء الأقصى" على المحافظة على سلاحها، وكوادرها الاستشهادية، ليس فقط من أجل استكمال مشروع التحرير؛ بل لحماية استقلال غزة ذاتها وتأمين هذا المكسب الذي تحقق بفضل دماء الشهداء.

إسرائيل بالطبع لن تعطي مكسباً للفلسطينيين إلا وهو مسموم وملغوم، فمن ناحية فإن الحكومة الإسرائيلية حصلت على موافقة أمريكية على إغلاق ملف اللاجئين الفلسطينيين والقدس واستمرار التوسع الاستيطاني في الضفة، ومن ثم إضافة كاملة لتلك الأراضي في القدس والضفة الغربية إلى إسرائيل واستمرار بناء الجدار العازل وإلغاء صداع اللاجئين، ولعل المعارضة الدينية الصهيونية لشارون في عملية الانسحاب من غزة، لم تكن فقط عدم رغبة في ترك أي أرض احتلتها إسرائيل، وهي عقيدة اليمين الديني الصهيوني؛ بل كذلك لمنع شارون أو غيره من التفكير في المزيد من الانسحاب؛ بل والحصول على وعود باستمرار توسيع المستوطنات في الضفة والقدس، ووضع نهاية لإمكانية قيام كيان فلسطيني مترابط في الضفة والقطاع معاً، أي تحويل غزة إلى نوع من جبلاية القرود للتحكم في الشعب الفلسطيني؛ خاصة أن إسرائيل حرصت في هذا الإطار على السيطرة على الحدود، على البحر، على الجو، بما فيها القيام بنشاط عسكري بحري وجوي وبري عند الحاجة.

انكسار المشروع الصهيوني

والتأمل في هذا الانسحاب يقتضي وضع عدد من الملاحظات الهامة في الموضوع على النحو التالي:

- أنه لأول مرة في تاريخ إسرائيل، تجبر إسرائيل على تفكيك مستوطنات، والانسحاب من أرض تزعم أنها أرض إسرائيل، وهذا ولا شك يعد انكساراً هامًّا في منحنى المشروع الصهيوني، وهو أمر له ما بعده على مستوى بنية وتماسك المجتمع الصهيوني ذاته، ومصداقية المشروع الصهيوني برمته، وعلينا أن ندرك أن شارون الدموي وصاحب التاريخ الإرهابي، وهو يميني شديد التطرف مؤمن بالاستيطان وداعم له إلى آخر مدى، اضطر إلى الانسحاب تحت مطرقة المقاومة، لأنه كسياسي وعسكري أدرك استحالة الدفاع عن المستوطنات في غزة، و ٤ في الضفة فانسحب منها، وكذلك أدرك استحالة مواجهة الانتفاضة والمقاومة إلى وقت أطول فقرر الانسحاب لحماية أمن إسرائيل بحيث يضع إسرائيل كلها خلف الجدار العازل، وليس حبًّا في السلام ولا من أجل عيون الحكومات العربية ولا السلطة الفلسطينية، ومن ثم فإن هذا يعني أن الشعوب قادرة على تحقيق نوع ما من الانتصار وتحقيق بعض المطالب والحقوق بالمقاومة والصبر والصمود.

ومن المفيد هنا أن نقول أن قوة مطرقة المقاومة جعل شارون يضحي - ربما بمستقبله السياسي، وتماسك الليكود من خلفه؛ بل وبصدور فتاوى بقتله من الحاخامات لأنه أدرك استحالة حماية أمن إسرائيل إلا بالانسحاب. وفي هذا الصدد؛ فإن اليمين الديني الإسرائيلي كان قد أفتى بإهدار دم شارون، ودعا الجنود إلى عصيان الأوامر، وأن التوراة تنص على عدم جواز الانسحاب، وتكفير كل من يساهم أو يقبل بذلك؛ بل واستخدام النص الديني بكثرة في التكفير والتخوين والدعوة إلى التمرد والعصيان وإهدار دم شارون.... إلخ

ولمع في هذا الصدد أسماء حاخامات مثل عوفاديا يوسف، ،أسحق خدوري، والحاخام إبراهام شابيرا. ومع ذلك لم يتحرك أحد الأمريكان أو الغربيين أو المعلقين السياسيين للحديث عن بنية الإرهاب في الدين اليهودي أو الدعوة إلى تطوير التعليم الديني اليهودي أو إغلاق المدارس الدينية، أو وضع قوائم بهؤلاء المتطرفين والداعين إلى العنف والتمرد - لمنعهم من دخول أوروبا وأمريكا مثلاً كما يحدث مع ما يسمى بالتطرف الإسلامي!!.

محاولة إشعال الفتنة

وإذا كان الهدف الإسرائيلي الثابت هو إحداث حرب أهلية فلسطينية - والوقيعة تحديداً بين حماس والسلطة والضغط في هذا الاتجاه بكل الوسائل، واستخدام النفوذ الأمريكي في هذا الصدد. بدعوى أن إسرائيل قدمت شيئاً، وعلى السلطة أن تقدم في المقابل نوعاً من الضغط على حركات المقاومة "نزع سلاح الإرهاب"؛ فإنه يجب على كل من السلطة وحماس عدم الانجرار وراء هذا المخطط دون التفريط في الثوابت. وعلى كل حال فإن حماس احتفلت بالانتصار دون أن تثير حساسية السلطة إلا قليلاً، والسلطة تحت ضغط الشارع الفلسطيني لن تجرؤ على الوصول إلى حد الانخراط في المشروع الأمريكي لمحاربة الإرهاب، وسيظل إلى حد كبير الدم الفلسطيني خط أحمر - مع وجود تجاوزات هنا وهناك، إلا أن الدرس الذي ينبغي تعلمه من الإسرائيليين، أن الحكومة الإسرائيلية لم تعتقل أو تحاكم المتطرفين الدينيين اليهود، رغم أنهم استخدموا آيات التوراة للتأكيد على أن غزة والضفة وكل فلسطين هي أرض لليهود، وأن الانسحاب منها سيؤدي إلى نقمة ولعنة الرب، وأن من يفعل ذلك آثم، ووصل الأمر إلى حد دعوة الجنود للعصيان والتمرد، وإهدار دم شارون، وبالقياس مع الفارق، فإن الذين يدعون إلى تحرير كامل التراب الفلسطيني، وبأن زوال إسرائيل حتمية قرآنية من حقهم ذلك، واستخدام التحريض الديني

الإسلامي لدفع الناس لمقاومة الاحتلال أمر مشروع.

* * *

مستقبل النضال الفلسطيني
بعد الانسحاب الإسرائيلي من غزة

في قول لا يخلو من الدلالة قال بنيتا فيريرو - والدنر من المفوضية الأوروبية للشئون الخارجية - تعبيراً عن رأي الاتحاد الأوروبي بالتالي - " لقد أثنى المجتمع الدولي بشدة على انسحاب إسرائيل من غزة ومن أربع مستعمرات في الضفة الغربية وتستحق الحكومة الإسرائيلية وشعبها أن يفتخروا لرؤيتهم السياسية وشجاعتهم ". وهذا بالتحديد هو أحد أهداف الانسحاب الإسرائيلي من غزة، التي هي مكلفة أمنيًا جدًا لإسرائيل، وكان من الممكن أن تتحول المستعمرات الصهيونية فيها إلى رهائن بيد الفلسطينيين إذا ما تحولت الانتفاضة إلى ثورة شاملة، فأرادت إسرائيل أن تتخلص أمنيًا من كل ما هو خارج الجدار العازل وتحقق في نفس الوقت مكسبًا سياسيًا أمريكيًا وأوروبيًا وعالميًا هو الهدف الذي عبر عنه أحد مسئولي الاتحاد الأوروبي " بنيتا فيريرو ". أي التخلص من العبء الأمني لغزة وإلقاء الكرة في الملعب الفلسطيني، لتقوم السلطة بما لم تستطع أن تقوم به إسرائيل من القضاء على المقاومة وخاصة حماس والجهاد الإسلامي. يضيف نفس الشخص " بنيتا فيريرو " قائلاً ": إن الثقة التي يمكن توليدها في الشهور القادمة سوف يتم حتماً القضاء عليها إذا لم يتم مجابهة العنف "... إذاً فليس المطلوب هذا إسرائيلياً فقط، بل أصبح رؤية إسرائيلية أمريكية أوروبية ولا مانع من تسويقها عالمياً. ولعلنا هنا لا نضيف جديداً، إذا قلنا أن الولايات المتحدة تضع كل من حماس والجهاد وشهداء الأقصى على جدول الإرهاب المطلوب تصفيته وقامت الأجهزة الأمريكية بعمل قضايا وملاحقات لرعايا أمريكيين من أصل فلسطيني أو عربي بتهمة

تمويل حماس أو الجهاد، وكذا أعلن جورج بوش مؤخراً - ومن قبل - أن على السلطة أن تتخلص من كل من يقاتل إسرائيل في الضفة وغزة وإلا فلا مبرر لها وربط المعونات الأمريكية والاستمرار في خارطة الطريق بهذا الشرط - وهو نفس التصور الإسرائيلي - فقد أعلن أريل شارون أن خارطة الطريق ليست موضع نقاش الآن وأن إسرائيل لن تفاوض بشأنها مادام هناك فلسطينيون يقاتلون إسرائيل!!.، إذاً فالمطلوب إدماج حماس في العملية السياسية، أو تصفيتها، وإذا كان إدماج حماس في العملية السياسية هو نوع من الفخ، فإن تصريحات بوش وشارون إما أن تعني دفع حماس للاتجاه في الاندماج في العملية السياسية بدعوى معاندة أمريكا وإسرائيل وإما أن أمريكا وإسرائيل لا ترضيان بأقل من ذبح حماس. من قبل فإن الاتحاد الأوروبي كان قد وضع حماس والجهاد على جدول الإرهاب، ووصف حماس بأنها منظمة إرهابية ومع الانسحاب الإسرائيلي، فإننا أمام ضغط إسرائيلي - أوروبي أمريكي يتم تسويقه عالمياً لنزع سلاح المقاومة. أي عملياً إنهاء القضية الفلسطينية، لأن إسرائيل ومعها أمريكا من خلال وعد بوش، لا تريدان الحديث أصلاً عن القدس واللاجئين. إذا كان الانسحاب الإسرائيلي من غزة هو آخر المطاف، ولا بأس من تعديلات وانسحابات أخرى جزئية تحتفظ فيها إسرائيل بكل القدس وكل ما هو داخل الجدار من الضفة، ومن ثم فهي نهاية ظالمة جداً للموضوع الفلسطيني وإذا أدركنا أن المعابر والمياه والبحر والجو والجمارك وغيرها من الأمور السيادية لا تزال في يد إسرائيل بالنسبة لغزة ذاتها فمن الممكن في أي لحظة عودة الجيش الإسرائيلي إلى أي مكان في غزة، إذاً فهو مكسب مسموم مشكوك فيه يمكن مصادرته في أي لحظة، ومن ثم فإن سلاح المقاومة هو الضمان الحقيقي لتحرير فلسطين أو أي جزء منها على حسب تصورات ورؤى القوى المجاهدة أو حتى أطراف في السلطة ولا يجب أن ننسى هنا أن الذي دفع إسرائيل إلى الانسحاب هو الانتفاضة، العمليات الاستشهادية، وليس نظرة

عطف من إسرائيل أو أمر يتسم بالشجاعة من شارون كما وصفه مسئول العلاقات الخارجية بالمفوضية الأوروبية، ليس ضغط بوش ولا بلير أو هذا الزعيم العربي أو ذاك بل بفضل أمثال يحيى عياش وآيات الأخرس، ولأن المسألة كذلك أي أن الانسحاب هو نوع من التمهيد لتحميل السلطة مهمة نزع سلاح المقاومة، وإثارة حرب أهلية فلسطينية بالتالي، فإن من المتوقع أن تزداد عمليات الضغط على السلطة الفلسطينية في هذا الاتجاه من أمريكا وأوروبا " الدول التي تعطي مساعدات للسلطة " ومن إسرائيل ذاتها، ويمكن أيضاً أن نفهم أن عملاء إسرائيل في غزة يمكن أن يقوموا بنوع من العمليات " على غرار عملية موسى عرفات " لإثبات أن الوضع غير مستقر وأن السلطة عاجزة عن ضبط السلاح في غزة، فتقوم السلطة بدورها تحت هذه الذريعة بالدخول في حرب حقيقية مع كل الأطراف المسلحة ليس تحت عنوان نزع سلاح المقاومة، بل تحت عنوان جمع السلاح غير الشرعي، أو تنفيذ القانون ، وسيادة القانون أو حماية أمن الأهالي. - إلخ، وبديهي أن سلاح المقاومة لم يرتفع قط في وجه غير إسرائيلي - حتى الآن على الأقل - ولا علاقة له بفوضى البلطجة المسلحة في غزة أو غيرها، بل ربما كان رجال داخل السلطة ذاتها هم من ينظمون ذلك وعلى قدر وعي رجال المقاومة، وإدارتهم المسألة بأسلوب مركب ومرن وملتزم بالثوابت، وعلى قدر عدم انصياع السلطة لأوامر إسرائيل وأمريكا فإن أمان غزة واستمرار النضال سيكون هو عنوان المستقبل، أما إذا حدث العكس، فإنه سيكون ضياع ليس للمقاومة وحدها بل للسلطة ذاتها ولقضية الشعب الفلسطيني لسنوات طويلة قادمة.

* * *

أول الغيث... عدوان إسرائيلي جديد

أسبابه - دلالاته - نتائجه

ممارسة إسرائيل للعدوان غريزة صهيونية تفعل فعلها بصرف النظر عن الأسباب، فالذين أقاموا إسرائيل حددوا لها هدفاً ثابتاً هو العدوان، ولو كف الكيان الصهيوني يوماً عن العدوان - وهذا شبه مستحيل نظراً لتركيبة الكيان الصهيوني ذاته - لو كف الكيان الصهيوني عن العدوان لفقد مبرر وجوده بالنسبة إلى الغرب عموماً وأمريكا خصوصاً، فالمطلوب منه باستمرار هو العدوان، ولا شيء آخر سوى العدوان لمنع العرب والمسلمين عن النهضة والتحرر والنكاية بالأمة الإسلامية والحضارة الإسلامية.

ولكن هذا لا يمنع من وجود أسباب جزئية طارئة لكل عدوان جديد، والعدوان الإسرائيلي الأخير على الضفة وغزة يحمل كل المعاني السابقة، أسباب تتعلق بطبيعة الكيان الصهيوني ودوره، وأسباب أخرى تتعلق بالظروف الراهنة.

بداية علينا أن نرصد الأحداث قبل العدوان، وأثناء العدوان لنكتشف تلك الأسباب المتصلة بالظرف الآني.

- بعد الانسحاب الصهيوني من غزة -. هدأت الأمور بين الإسرائيليين والفلسطينيين لمدة أسبوعين، وفي أثناء احتفال أقامته حركة حماس بمناسبة الانسحاب الصهيوني، وتحديداً في مدينة جباليا. قامت إسرائيل بقصف الصواريخ على الاحتفال، أدى إلى وقوع ١٩ شهيداً وحوالي ٨٠ جريحاً، وهذا في رأينا كان بداية العدوان الصهيوني - المبيت بليل - على غزة والضفة، وكان من الطبيعي أن ترد حماس بإطلاق صواريخ القسام على بلدة أسديروت الإسرائيلية فاجتمع مجلس الوزراء الإسرائيلي طبقاً للرواية الإسرائيلية ووضع

خطة عسكرية أطلق اسم " أول الغيث " عليها. وبدأت الطائرات الإسرائيلية تنفذ غاراتها على الضفة وغزة، وتم قصف مباني وبيوت وبنية أساسية بطائرات الأباتشي والإف١٦. كما تم اغتيال عدد من الفلسطينيين من العناصر السياسية والعسكرية لحماس والجهاد، وتم التهديد علناً باغتيال الدكتور محمود الزهار " القائد السياسي لحماس "، كما تم اعتقال المئات من مختلف الاتجاهات، ونلاحظ هنا استخدام طائرات ثقيلة لا تستخدم إلا في الحروب الكبيرة وليس العدوان على شعب ضعيف وبيوت آمنة - هي طائرات الإف١٦ كما نلاحظ أن تلك الطائرات كانت تتعمد اختراق حاجز الصوت لكي ترعب أطفال وأهالي غزة والضفة الغربية!!. كما تم إطلاق صواريخ إسرائيلية وقصف مدفعي، ونلاحظ أيضاً أن القذائف الإسرائيلية من طائرات ومدفعية وصواريخ استهدفت مقرات لحماس والجهاد وشهداء الأقصى والجبهة الشعبية وكذا استهدفت مواقعاً مدنية عادية مثل الجسور، الورش، المدارس، مقرات للسلطة الفلسطينية ذاتها، جمعيات زكاة، دور للأيتام، جمعيات للقرآن والسنة، أندية رياضية، دار للعلاج الطبيعي... إلخ.

الرواية الإسرائيلية تقول أن عملية أول الغيث بدأت بعد إطلاق صواريخ القسام على بلدة أسديروت الإسرائيلية، وهذا غير صحيح، فالعملية بدأت بإطلاق صواريخ إسرائيلية على احتفال حماس في جباليا والذي أدى إلى قتل وجرح ١٠٠ شخص!!، ومن الغريب أن السلطة الفلسطينية ادعت أن حادث جباليا تم بسبب انفجار في شاحنة تابعة لحماس كانت تحمل صواريخ وعبوات ناسفة - وهو أمر غير معقول ولا مقبول - فمن الطبيعي ألا تأتي حماس بأسلحة وذخيرة حية إلى مكان الاحتفال وبديهي أن إسرائيل رددت نفس كلام السلطة الذي أعفاها من الضغط الدولي، وقد فعلت السلطة ذلك لحصار حماس شعبياً لأسباب انتخابية، وهو موقف غير صحيح ولا أخلاقي لأنه يقدم ما هو تكتيكي على ما هو استراتيجي. العدوان إذاً بدأ بالهجوم الإسرائيلي على جباليا، وكان

معداً ومبيتاً من قبل لأسباب كثيرة منها:

- أن إسرائيل أرادت أن توصل رسالة إلى السلطة والفصائل والرأي العام الإسرائيلي في وقت واحد، وهي أنها لم تنسحب من غزة، وأنه من الممكن أن تعود في أي لحظة، وأن الحرب الإسرائيلية على المقاومة عموماً وحماس خصوصاً لم ولن تتوقف، وأراد شارون بذلك أن يقول لمعارضيه في الليكود وخاصة نتنياهو، أنه أكثر منه تشدداً، وأن حربه على الإرهاب لن تتوقف، وأنه لم ينسحب من غزة ولكنه فقط سحب المستوطنين إلى الداخل حتى لا يظلوا أسرى في يد أهالي غزة وقريبين من انتقامهم، وأن عملية فك الارتباط - لاحظ أن اسمها فك الارتباط بغزة وليس الانسحاب من غزة - كانت عملية أمنية أولاً وأخيراً لتحقيق خطة شارون في تأمين كل إسرائيلي خلف الجدار العازل، وبالتالي تفكيك كل المستوطنات خارج الجدار. وأن السيطرة على غزة براً وبحراً وجواً، سياسياً وعسكرياً مازالت بيد إسرائيل، ومن ثم فإن المزايدة على شارون إسرائيلياً وليكودياً لن تكون صحيحة.

- أن الحكومة الصهيونية تضغط على محمود عباس أبو مازن، وتقول له أنه مادام لم يقوم في غضون الأسبوعين الذين مرا على الانسحاب الإسرائيلي من غزة وحتى بداية عدوان " أول الغيث " بالدخول في حرب مع الإرهاب - " حرب أهلية ضد شعبه "، فإن إسرائيل ستقوم بالأمر بنفسها، وأنها حصلت على موافقة أمريكية على ذلك، ومن ثم فإن إسرائيل أرادت بهذا العدوان إلغاء أي فكرة في رأس محمود عباس أو غيره عن إمكانية التفاوض على أي شيء، فقط المطالبة مثلاً بوقف العدوان الإسرائيلي الأخير والإفراج عمن تم اعتقاله، أي الهروب إلى الأمام، بل إن إسرائيل ألغت موعداً سابقاً للقاء شارون بأبي مازن وهي هنا تريد إنهاء أبي مازن سياسياً في الضفة والقطاع ومن ثم العودة مجدداً إلى المربع صفر، ولعل الفصائل الفلسطينية قد فهمت هذه الرسالة، وأرادت إما

أن تعطي فرصة أخيرة لأبي مازن، أو تثبت له عدم جدوى المراهنة على أي تنازل إسرائيلي أو ضغط أمريكي، وبرغم كل ما فعلته إسرائيل في العدوان الأخير أعلنت الفصائل الفلسطينية مجتمعة بما فيهم حماس والجهاد التزامها بالتهدئة وإعلان القاهرة الموقع في ١٧ مارس ٢٠٠٥ وذلك خلال اجتماع لجن المتابعة العليا للقوى الوطنية والإسلامية الذي تم في ٢٠٠٥/٩/٢٧ أي بعد وقوع العدوان الصهيوني الأخير ومن المعروف أن تلك اللجنة تضم في عضويتها كل القوى والفصائل الفلسطينية المعارضة والمؤيدة للسلطة على حد سواء.

الموقف الأمريكي من العدوان الصهيوني هو بدوره لم يكن مفاجئاً ويبدو أن هناك اتفاق أمريكي صهيوني على الضغط على محمود عباس أبو مازن لدفعه في اتجاه الحرب الأهلية الفلسطينية، فإذا لم يفعل تم التمهيد للاستغناء عنه أو حصاره وإهماله على غرار عرفات، الموقف الأمريكي إذاً غض الطرف أو أيد العدوان الصهيوني الأخير، فقد اكتفت الخارجية الأمريكية بإعلان قيامها بالاتصال بالطرفين الفلسطيني والإسرائيلي لمطالبتهما بالمحافظة على مناخ التهدئة!! - الصحيح قبول الموت بهدوء - واعتبرت الخارجية الأمريكية أن ما يحدث هو مجرد سلسلة في أعمال العنف المتبادل بين الطرفين!!. ولم تنس الأوساط الأمريكية أن تؤكد من جديد على أن حماس منظمة إرهابية يجب القضاء عليها... وكذا الجهاد والجبهة الشعبية وشهداء الأقصى. وأن السلطة لم تقم بواجبها في القضاء على هذا الخطر الذي يهدد إسرائيل ويطلق عليها الصواريخ - وكأن علينا أن نموت مكتوفي الأيدي، وانحاز الموقف الأمريكي إلى الرواية الإسرائيلية بشأن سبب العدوان، وبشأن تفسير حادث جباليا، بل إن بيان التهدئة الذي أصدرته حماس، اعتبرته الخارجية الأمريكية لا يعني شيئاً بالنسبة لها. وأن من حق إسرائيل أن تقوم بالهجمات واغتيال النشطاء لتفكيك المنظمات الإرهابية، أما الحديث عن استمرار العملية السلمية وفقاً لخارطة

الطريق فهذا من وجهة نظر الأمريكيين مؤجل لبعد الانتخابات الفلسطينية في يناير والإسرائيلية في نهاية العام القادم!!.

وهكذا فإن كل حدث وحادث، كل تطور وتطوير، يؤكد من جديد الحقيقة التي باتت شديدة الوضوح، لا يتغافل عنها إلا الأعمى، وهي أن إسرائيل لن تكف عن العدوان، وأن هناك تماهياً وانطباقاً هندسياً بين أمريكا وإسرائيل وأن الحكومات العربية والسلطة الفلسطينية والمجتمع الدولي أعجز من أن يقوموا بشيء لوقف نزيف الدم الفلسطيني ومن ثم فلا طريق هناك إلا المقاومة، لأنك إن سكت مت وإن تكلمت مت، وإن قاتلت مت، فالأشرف طبعاً أن تقاتل وتموت، هذا مع العلم أن القتال سيؤدي في النهاية إلى النصر والشرف، أما السكوت فسيؤدي حتماً إلى العجز والموت والمهانة أيضاً.

* * *

غياب شارون
الآثار والتداعيات

أن يغيب شخص ما عن الحياة السياسية بالموت أو المرض الذي يعيقه عن ممارسة العمل، فهذه هي سمة الحياة... فالموت حق والمرض قضاء لا يمكن رده حتى الآن برغم كل التقدم الطبي الهائل.

ولكن غياب شارون ليس كأي غياب لأي شخص أو زعيم أو رئيس... فالشخص واللحظة التاريخية والظروف الموضوعية الخاصة بمعادلات الصراع العربي الإسرائيلي، كلها تشير إلى أن غياب شارون ستكون له آثار استراتيجية وتكتيكية على مستقبل ذلك الصراع ومعادلاته، وعلى إسرائيل نفسها بكل معادلاتها السياسية المتعددة، وعلى تركيبة الخريطة السياسية الإسرائيلية شديدة التعقيد. وعلى حزبه الذي شكله قريباً جدًّا ولم يهنأ باستمراره

رئيساً لـه، بعد أن أظهرت استطلاعات الرأي تقدم هذا الحزب الوليد على الأحزاب الإسرائيلية التقليدية " العمل - الليكود ".

قد يبدو للوهلة الأولى أننا نرى أن شارون شخصية فذة ولو كان كذلك لاعترفنا بهذا الأمر، لأن الاعتراف بالعبقرية حتى لأشد الناس عداوة أمر مقبول ومشروع ومطلوب. ولكن الحقيقة أن الآثار الضخمة المترتبة على غياب شارون لا ترجع إلى عبقريته الفردية أو ملكاته السياسية ولكن إلى أمور أخرى كثيرة.

شارون المولود عام ١٩٢٨، والذي هو من جيل المؤسسين لدولة إسرائيل، والمرتبط اسمه بالمذابح منذ بداية إسرائيل وحتى صابرا وشاتيلا عام ١٩٨٢ ثم بسياساته القمعية الوحشية منذ عام ٢٠٠١ عندما تسلم رئاسة الوزراء في إسرائيل، وقبلها عندما كان وزيراً للدفاع، أو ضابطاً كبيراً في الجيش الصهيوني، وكذا بسياسات الاستيطان الواسعة كوزير في حكومات اليمين الإسرائيلي. ثم ارتباط الجدار العازل الذي تقيمه إسرائيل ليفصلها عن الفلسطينيين باسم شارون كصاحب للفكرة ومنفذ لها. ثم الانسحاب من غزة أو احتلال غزة عن بعد وهو الاسم الصحيح لذلك الانسحاب وإذا وضعنا تلك الأمور بجانب بعضها البعض، فنحن أمام شخصية متوسطة الكفاءة، براجماتية جداً. قاسية بلا حدود، فبناء الجدار مثلاً يعني التخلي عن أوهام إسرائيل الكبرى أو إسرائيل التوراتية، وهو يعني إدراك الحقائق الموضوعية أكثر من التأثر بالتراث التوراتي، وإحساس متزايد بأن إسرائيل في مأزق تاريخي حقيقي يهددها بالفناء والنهاية نتيجة اكتشاف الشعب الفلسطيني لسلاح الاستشهاد، ونتيجة تصاعد الصحوة الإسلامية، ونتيجة ظروف موضوعية كثيرة منها الفشل الأمريكي الذريع في العراق وامتلاك الشعوب القدرة على المقاومة.... فإذا تمسكت الشعوب بفكرة المقاومة، فإن نهاية إسرائيل محتومة مهما كانت

قدراتها العسكرية، ولذا قرر شارون أن يحمي إسرائيل بجدار عازل يمنع العمل الفدائي والاستشهادي. ولعل هذه النقطة الأخيرة ذاتها، أو إحساس الشعب الإسرائيلي بمستقبل غامض لدولة إسرائيل، وبأن إسرائيل أصبحت هي أقل الأماكن أماناً في العالم بالنسبة لليهودي، وهو ما ينسف الفكرة الصهيونية ذاتها والتي روج لها دعاة الصهيونية الأوائل من إقامة كيان يشعر فيه اليهودي بالأمان وعدم الاضطهاد بعدما تعرض للاضطهاد على يد الأوربيين!!. هذه المسألة تحديداً هي التي صعدت بشارون في الفترة الأخيرة، فقد بحث الإسرائيليون عن شخص يعطيهم ولو إحساس زائف بالأمان المفتقد، وشخص يستطيع أن يرسم حدوداً نهائية لدولة إسرائيل، فتقل من ثم مخاطر المستقبل على الإسرائيليين ووجدوا هذا الشخص المناسب من وجهة نظرهم، أي الذئب البراجماتي شارون، وفي الوقت نفسه فإن الفترة التي صعد فيها شارون تميزت بغياب زعامات إسرائيلية قادرة على لم الشمل الصهيوني، أو حتى شخصيات متميزة تصلح لقيادة العمل السياسي في إسرائيل.

وهكذا فإن غياب شارون يعني مباشرة عودة الشعور الإسرائيلي بالخوف والقلق الذي كان شارون بمثابة المخدر الموضعي المانع له مؤقتاً، وهو أمر سوف تكون له آثاره البعيدة والقريبة على الساحة الصهيونية، وسيؤدي بالضرورة إلى نوع من التشرذم والتفكك الصهيوني بعد غياب اللحام اللاصق للوضع الصهيوني المكسور.

لن يستطيع نتنياهو بالطبع في ظل قيادته لليكود، بسبب طبيعة الليكود ذاته من أفكار وسياسات ورؤى أن يسد الفراغ، وصحيح أن الليكود سيستفيد جزئياً من غياب شارون بعودة بعض الناخبين أو السياسيين إليه وارتفاع حصيلته النهائية من المقاعد البرلمانية والحجم السياسي في إسرائيل بالتالي، ولكن هذا شيء وسد الفراغ تماماً شيء آخر، ولن يستطيع عمير بيرتز الزعيم الجديد

لحزب العمل أن يسد هو بدوره الفراغ لأسباب تتصل بشخصيته وبالقوى السياسية والحزبية في حزب العمل. ونلاحظ أن الفترة الأخيرة شهدت تغيراً في قواعد حزبي العمل والليكود، وحزب كاديما الجديد الذي أسسه شارون فقد عاد إلى حزب العمل قطاعات من اليهود الشرقيين " السفارديم " وهو الحزب الذي كان المكان المفضل للأشكيناز " اليهود الغربيين " والذي قاده رموز من هؤلاء الأشكيناز لفترة طويلة وعمير بيرتز الزعيم الجديد لحزب العمل يهودي شرقي " سفارديم " من أصول مغربية، على حين اقتصر الليكود على قواعد من اليمين المتطرف والتوراتي تحديداً، أما كل الطبقة المتوسطة تقريباً، والبراجماتيون، والباحثون عن حل عقلاني لإنقاذ دولة إسرائيل فقد ذهبوا إلى حزب " كاديما " وراء شارون، ولكن بما أنهم لا يملكون أيدلوجية خاصة، ولا يجمعهم تاريخ مشترك من القواسم النضالية والسياسية، فإن غياب شارون سيكون بمثابة ضياع الواحد الصحيح الذي كان موجوداً أمام عدد من الأصفار، أي ضياع الرباط الجامع لهم، وهكذا فإن من المتوقع أن يضعف هذا الحزب جداً، ولن يستطيع شيمون بيريز أن يقود هذا الحزب، لأنه ليس شخصية جاذبة للآخرين، ولأنه عادة ما يخسر أي انتخابات يخوضها، ولأنه بدون عجوز يمكن أن يمرض أو يموت فجأة، ولأنه في النهاية من معسكر حزب العمل أما يهود أولمرت فإنه وإن كان الأقرب أيدلوجياً إلى شارون إلا انه يفتقد مهارات شارون وتاريخه، وحقيقة الأمر أن حزب كاديما تكون حول شارون وبسبب شارون، وغياب شارون يعني نهاية قريبة أو بعيدة للحزب وصحيح أن الحزب لن يحل نفسه، وسيستمر في الانتخابات في نهاية مارس تحت زعامة جديدة، ولكن النسبة التي كانت تعطيها له استطلاعات الرأي سوف تتأثر كثيراً جداً. وهكذا فإن الحزب سيستمر إلى ما بعد الانتخابات ثم يأخذ طريقه إلى التلاشي.

من المتوقع أن يحدث اضطرابات داخل صفوف الحركة الحزبية الصهيونية كثيراً، ومن الممكن أن يقوى الليكود والعمل، أو تظهر أحزاب

جديدة، وسيكون نتنياهو هو المستفيد الأكبر من غياب شارون...

على مستوى معادلات الصراع في المنطقة فإن غياب شارون سيؤثر بالضرورة على تلك المعادلات، فشارون الذي كان يحظى بأغلبية إسرائيلية تؤيده سواء في الليكود أو في " كاديما " ومن ثم كان قادراً على اتخاذ قرارات نوعية هامة " مثل الانسحاب من غزة، أو رسم حدود إسرائيل النهائية أو بناء الجدار " - بصرف النظر عن الرأي في ذلك كله - هذه القرارات التي يعارضها اليمين الإسرائيلي هي بذاتها لم تعد متاحة لأن الليكود لن يتخذ مثلها، ولا حزب العمل قادر على تمريرها، ومن ثم فإن فرصة أي نوع من الحل السياسي للقضية بات أبعد مما كان في حالة وجود شارون وهو أمر على جميع القوى في المنطقة وخاصة السلطة الفلسطينية أن تأخذه في اعتبارها.

* * *

تآكل السلطة - تفكك فتح - صعود حماس

الراصد لما يحدث في غزة والضفة الغربية، في الآونة الأخيرة خاصة بعد الانسحاب الصهيوني من غزة، أو قل احتلال غزة عن بعد في ظل السياسة الصهيونية لتفريغ بعض المناطق في غزة، لمنع إطلاق صواريخ القسام - وبديهي أن تلك السياسة فاشلة - فالذي صنع الصاروخ قادر على تطويره وزيادة مداه، والظروف الموضوعية الفلسطينية تحتم استمرار نهج المقاومة مهما كان الثمن!!. الراصد لما يحدث في الضفة وغزة إذن... يكتشف للوهلة الأولى أن السلطة الفلسطينية بقيادة محمود عباس أبو مازن تتآكل بصورة مستمرة، فالإسرائيليون مثلاً ضغطوا كثيراً على تلك السلطة وأحرجوها، سواء في ممارسة الانسحاب من جانب واحد، أو استمرار أعمال القمع والاغتيال والاعتقال للفلسطينيين، أو رفض الإفراج عن الأسرى، أو الاعتراف بوجود طرف فلسطيني يمكن للإسرائيليين التفاوض معه، هكذا فإن المحصلة هو

إعطاء الشارع الفلسطيني الانطباع بأن اعتدال محمود عباس والسلطة لن يفيدوا في شيء، ومن ثم فإن المقاومة هي الحل، وكذلك فإن تفشي الفساد في أجهزة السلطة أصبح حقيقة مؤكدة، ولم يستطع محمود عباس ولا سلطته منع هذا الفساد أو التصدي له رغم أن آمالاً كبيرة قد علقها الفلسطينيون في الضفة وغزة على أبي مازن لتحقيق ذلك. ومن ناحية ثالثة فإن سوء الأوضاع الاقتصادية يزداد، والبؤس ينتشر والبطالة والفقر في حين أن حركة حماس مثلاً لا تعاني وجود هذا الفساد داخلها، وإذا ما أشرفت على توزيع معونات أو مارست عملاً اجتماعياً لصالح الأهالي في غزة، تقوم به بشفافية وكفاءة، الأمر الذي يعني عمل نوع من المقارنة تؤدي بالضرورة إلى تآكل مشروعية السلطة، النقطة الأهم في هذا الصدد هو وجود فلتان أمني غير عادي في كل مكان لدرجة أن البعض يرى أن السلطة بكل أجهزتها الأمنية تكاد تكون غائبة، وهناك نوع من الفلتان لا حدود له يؤثر على حياة الناس.

في الإطار نفسه فإن قوى وعناصر داخل حركة فتح أصبحت تمارس السلطة رغم أنف السلطة، وتقوم بأعمال من أمثال الهجوم على مواقع حكومية واحتلالها بضع ساعات أو اختطاف أشخاص فلسطينيين أو أجانب ثم الإفراج عنهم، وهذا يعني ببساطة أن السلطة لم تعد قادرة على ضبط الأمن، ووصل الأمر إلى حد الهجوم على معبر رفح وكسر الحواجز الأسمنتية مع مصر، بل وإطلاق رصاص على الجنود المصريين وقتل اثنين وجرح العشرات، الأمر الذي يعني أن هؤلاء قادرون على دخول حرب مع دول مجاورة دون رضا أو علم السلطة، وأنهم قادرون على فتح الحدود وإغلاقها، والسماح أو عدم السماح بالسفر لأي شخص كان وهو يعني أولاً تآكل السلطة - إن لم نقل انهيارها - وبما أن هؤلاء المهاجمون يكونون عادة من حركة فتح، فهذا يعني أن الحركة لم تعد قادرة على ضبط كوادرها، أو تحديد قيادة واحدة لها، وقد وصل الأمر في هذا الصدد أن فتح اضطرت إلى تقديم قائمتين للانتخابات التشريعية، ثم

حدثت مساومات وصفقات وتم الاتفاق على قائمة موحدة، ولعلنا في هذا الصدد لابد أن نشير إلى نقطة غاية في الأهمية، وهي أن عناصر كتائب شهداء الأقصى - الشرفاء منهم - لا يعجبهم نهج الاستسلام، ويرون الظروف الموضوعية كلها تقود إلى ضرورة استمرار المقاومة، وهؤلاء ينسقون مع حماس والجهاد لاستمرار العمل المقاوم. والباقون من شهداء الأقصى شعروا بأنهم بعد أن فقدوا إمكانية العيش بدون تهديد إسرائيلي، لأنهم مطلوبون، وبعد أن حرقوا مراكبهم إذا بالسلطة تتخلى عنهم، ومن ثم فهم يشاغبون على السلطة طلباً للمال والتوظيف والمناصب، أو يتم إستغلالهم من قيادات معينة داخل حركة فتح لتصفيات حسابات معينة.

المحصلة الواضحة لذلك كله هو أن السلطة تتآكل وفتح تتفكك، والناس وصلت إلى حالة من الغضب والإحساس بأن مشروع أوسلو لم يحقق شيئاً جدي لصالحهم، فلا هم حصلوا على الأمن الداخلي، ولا حصلوا على لقمة العيش، ومن ثم فإن البديل الوحيد والمتاح أمامهم هو التخلي عن حركة فتح، واللجوء إلى انتخاب حماس - لو تم إجراء انتخابات - فإن الجميع يتوقعون أن تفوز بها حماس، كنوع من العقاب لفتح أولاً، ثم الإحساس بانضباط عناصر حركة حماس، ثم وجود عناصر تتمتع بالتواضع والأدب الجم وعدم الفساد داخل حركة حماس، ثم الأكثر من ذلك أن حركة حماس تتمتع بتنظيم دقيق ينفذ الأوامر، وليس هناك صراعات داخلها، ولها وجود مالي واجتماعي لا بأس به في الواقع الفلسطيني قدمت من خلاله العديد من الخدمات الصحية والاجتماعية للطبقات الفقيرة من الشعب الفلسطيني في الضفة وغزة.

وإذا كانت حركة حماس ترى أن دخولها الانتخابات ومن ثم فوزها وتشكيل الحكومة هو ضرورة لإنقاذ الوضع الفلسطيني من الانهيار، وأن ذلك لبناء ما دمره الاحتلال، وما أفسدته السلطة، وأن هذا الدخول أو الوصول إلى السلطة لا

يعني الاعتراف بأوسلو وأنها لن تفاوض من أجل التفاوض بل من أجل الحصول على حقوق واضحة ومحددة سلفاً، وأنها لن تسقط خيار المقاومة في كل الأحوال، فإن البعض الآخر يحذر من أن ذلك الطريق ربما يكون فخاً نصبته إسرائيل لحماس، لضرب فكرة المقاومة في مقتل، والشوشرة على نهج الاستشهاد والصمود والرفض، وأن حماس بالتالي سوف تسير في نفس الطريق الذي سارت فيه حركة فتح وربما ستصل إلى نفس النهاية مروراً بنفس السيناريو.

* * *

الموقف الأمريكي من حماس...
زيف الديمقراطية الغربية

يوماً بعد يوم نكتشف حقيقة - هي بذاتها بديهية - وهي أن الديمقراطية الغربية عموماً والأمريكية خصوصاً هي ديمقراطية عنصرية، وهي ديمقراطية مزيفة وهي ديمقراطية مشروطة!!. وأن الحديث الأمريكي عن نشر الديمقراطية في العالم هو نوع من النفاق المفضوح... ولعل قراءة نص قرار الكونجرس الأمريكي بخصوص حركة حماس يؤكد ذلك بما لا يدع مجالاً للشك.

يقول القرار الذي جاء بأغلبية ٣٩٧ صوتاً مقابل رفض ١٧ وامتناع ٧ عن التصويت - أي اتفق فيه الجمهوريون والديمقراطيون معاً!! -، يقول القرار " أن منظمات مثل حماس يجب ألا تتمكن من المشاركة في الانتخابات الفلسطينية، وأن دخول حماس الحكومة الفلسطينية أو أية منظمة أخرى مدرجة على اللائحة السوداء للمنظمات الإرهابية التي أعدتها وزارة الخارجية الأمريكية يمكن أن يحمل الإدارة الأمريكية على إعادة النظر في المساعدات المالية

للفلسطينيين والعلاقات الطبيعية مع الولايات المتحدة، ودعا القرار الرئيس الفلسطيني محمود عباس " أبو مازن " إلى الإعلان صراحة عن عزمه اتخاذ تدابير من شأنها القضاء على المنظمات الإرهابية.

صيغة القرار تكشف المستور وتوضح الحقائق التي باتت بديهية فالإيمان الأمريكي بالديمقراطية ليس إلا شقشقة لسان، فالديمقراطية الأمريكية هي السير وفق الأجندة الأمريكية، فإذا خرجت على تلك الأجندة قيد أنملة فأنت محروم من الجنة الديمقراطية المزعومة، أما إرادة الشعوب أو حق الشعوب في اختيار ممثليها وحكامها، فهو كلام لا قيمة له في السياسة الأمريكية.

- إن دعوة مجلس النواب الأمريكي إلى منع منظمات مثل حماس من الدخول في العملية الانتخابية هو نوع من فرض الوصاية على الشعب الفلسطيني، فعليه أن يختار ليس وفق إرادته بل من بين بدائل أمريكية وإسرائيلية أو مرضي عنها أمريكياً وإسرائيلياً وهو ما ينسف الديمقراطية نسفاً.

- أن قرار مجلس النواب لم يخص حماس وحدها بل كل الأحزاب والحركات التي جاءت على لائحة الخارجية الأمريكية، وإذا كانت حماس مثلاً قد حصلت في الانتخابات المحلية الأخيرة على أكثر من خمسين في المائة متقدمة على حركة فتح ذاتها، فإن إضافة حركات مثل الجهاد الفلسطيني - تقاطع الانتخابات - والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومنظمات أخرى يعني أن الكونجرس الأمريكي يتجاهل من قبل أغلبية الشعب الفلسطيني ومن ثم فهي دعوة إلى حكم الأقلية، أو قل دعوة إلى الديكتاتورية المباشرة.

- أن مجلس النواب الأمريكي يدعو صراحة الرئيس محمود عباس "أبو مازن" لاتخاذ تدابير للقضاء على حماس وغيرها من المنظمات الموصوفة لدى الولايات المتحدة بالإرهابية، وهي دعوة للحرب الأهلية أولاً ودعوة إلى الديكتاتورية ثانياً. ولكنها في نفس الوقت دعوة لإحراج الرئيس محمود عباس

أبو مازن - فهو لا يستطيع أن يفعل ذلك وإلا كان عليه قتل أكثر من نصف الشعب الفلسطيني مثلاً، وكذا فإن ظروف حركة فتح ذاتها، وتوجهات معظم كوادرها هي مع المقاومة ومن ثم فلا السلطة ولا الحركة قادرة ولا راغبة على فعل ذلك.

- علينا أن نضع في اعتبارنا هنا أن حركة حماس تحديداً - على عكس حركة الجهاد الفلسطيني مثلاً - قبلت المشاركة في العملية السياسية على قاعدة أوسلو وهو نوع من المرونة أو التنازل يصب في صالح المشروع الأمريكي في النهاية، ثم هي لوحت أكثر من مرة بإمكانية التفاوض مع إسرائيل، وتمسكت بالتهدئة رغم قيام إسرائيل باستهداف كوادرها بالقتل والاعتقال والمطاردة. ومع ذلك فإن الغباء الأمريكي والإسرائيلي لم يسمح بالتعاطي مع هذه المرونة، ولعل هذا يؤكد من جديد على حقيقة يجب ألا تغيب عن عقول المناضلين وهي أن أمريكا وإسرائيل لن تقبلا إلا بالانبطاح الكامل ولا أقل من ذلك.

على كل حال فإن الإسرائيليين أنفسهم فهموا معنى القرار الأمريكي أو قل أعطوه التفسير الملائم لهم، وماداموا كانوا قادرين على استصدار هكذا قرار من الكونجرس فإنهم قادرون على إعطائه التنفيذ وفقاً لتفسيرهم، فوزير الخارجية الصهيوني سيلفان شالوم قال في تصريحات لراديو إسرائيل عقب صدور القرار من الكونجرس أن إسرائيل مستريحة لقرار مجلس النواب الأمريكي الذي يدين مشاركة حماس في الانتخابات التشريعية الفلسطينية، وأن القرار يؤكد أن أبو مازن يجب أن يتحرك لنزع أسلحة المنظمات الإرهابية وأن يتخذ قراراً استراتيجياً لنزع هذه الأسلحة من تلك المنظمات.

وكما قلنا من قبل فإن الأوضاع الفلسطينية عامة، وأوضاع السلطة والانقسام الحاد في صفوف حركة فتح التي لم تنجح قيادتها في حسم موضوع

الدخول بقائمة واحدة في الانتخابات، بل اضطرت إلى القبول بقائمتين، وكذا الانفلات الأمني داخل فتح ذاتها وعدم سيطرة السلطة على الأوضاع بأجهزتها الأمنية المتعددة وعوامل صعود حماس ذاتها التي حصلت على أغلبية مقاعد المدن الكبرى في الضفة الغربية في آخر جولة في الانتخابات المحلية وخاصة في نابلس وجنين والبيرة وغيرها من العوامل كلها تقول أن السلطة لن تقبل تلك الإملاءات الأمريكية الصهيونية وهي مضطرة لاحترام إرادة الشعب الفلسطيني، ومحمود عباس شخصياً رفض النصيحة بتأجيل الانتخابات كنوع من الحل الوسط، أو الهروب إلى الأمام، وبذلك لا يكون قد أخرج حماس من الانتخابات، ولا يكون سمح لها في نفس الوقت انتظاراً لتغير الظروف، ويبدو أن إحساس أبو مازن بتسرب الأوراق من بين يديه، وبأن الأمريكان والإسرائيليين لم يعطوه شيئاً يناور به في الواقع الفلسطيني بل يضغطون عليه بدون وعي أو إدراك لظروفه الصعبة، جعلته يقرر الانحياز إلى رؤية شعبه في هذا الصدد، أفضل من خسارة كل شيء بلا مقابل، فإذا فازت حماس أو شاركت في الحكومة فإنه سيعد رجلاً محترماً احترم إرادة الناخب الفلسطيني وهذا يدخل في باب غسيل المواقف وتحسين الخواتيم. وإذا فازت فتح فلا بأس.

على الجانب الآخر فإن الإجماع الوطني الفلسطيني رفض هذا القرار الأمريكي، فالسلطة ممثلة في أبي مازن رفضت، والجبهة الشعبية رفضت بل هددت بالانسحاب من العملية الانتخابية برمتها تضامناً مع حماس، وحماس بدورها رفضت - وما كان لها إلا أن ترفض - وهي اعتبرت ذلك القرار نوعاً من التدخل في الأمور الداخلية للشعب الفلسطيني، وبديهي أن رفضها هذا وتمسكها بمواقفها يرفع رصيدها في الشارع الفلسطيني وهو مرتفع أصلاً لأسباب كثيرة منها انقسام فتح وفساد السلطة وغيرها من العوامل.

في كل الأحوال فإن هناك نقطة ينبغي على الجميع إدخالها في حساباتهم

التكتيكية حتى ولو كانت نقطة ذات طابع استراتيجي وهي أن المشروع الأمريكي في المنطقة انهزم بالفعل في العراق، أو يعاني على الأقل من مشاكل ضخمة ومن ثم فإن إرضاء أمريكا وإسرائيل هو نوع من خسارة الآخرة والدنيا معاً!!.

* * *

نزع سلاح حماس عن طريق الصندوق الزجاجي

منذ أن اتخذت حركة المقاومة الإسلامية " حماس " أسلوب الكفاح المسلح والعمليات الاستشهادية في مواجهة العدو الصهيوني وهي تمثل رقماً هاماً في الصراع شكلاً ومضموناً، ونستطيع أن نقول أن ما أنجزته الحركة في هذا الصدد كان خطيراً ونوعياً، فهي بعملياتها الاستشهادية أثبتت أن فلسطين المحتلة أصبحت أقل الأماكن أماناً بالنسبة لليهودي، وهذا ينسف فكرة الصهيونية نسفاً - ليست حماس وحدها بالطبع، فهناك سرايا القدس " حركة الجهاد " وشهداء الأقصى " حركة فتح " وغيرها من المنظمات التي اتخذت هذا الطريق، ولكن حماس في هذا الإطار هي الأكبر والأخطر بالطبع، ومن ثم فإن القضاء على حركة حماس بأي صورة من الصور كان العنوان الرئيسي للسياسة الإسرائيلية والأمريكية بل والأوروبية لحماية مستقبل إسرائيل بالطبع، ولأن سلوك حماس الجهادي، والجهاد عموماً يشكل خطراً على المشروع الأمريكي في المنطقة.

وفي الحقيقة فإن كل الحكومات الصهيونية بلا استثناء حاولت القضاء على حركة حماس، بالاغتيال، والاجتياح، وبالحصار والاعتقالات وبالعملاء وبكل الوسائل، لكن هذه الوسائل زادت حماس قوة أو على الأقل لم تخرجها من معادلة الصراع، وظلت تمثل تهديداً حقيقياً للمشروع الصهيوني الأمريكي في المنطقة. في الإطار ذاته ضغطت أمريكا وإسرائيل وأوروبا على السلطة

الفلسطينية منذ أوسلو لتصفية حركة حماس، وحاول ياسر عرفات بكل ثقله وزعامته أن يفعل ذلك وخاصة في التسعينات من القرن الماضي، ولكنه فشل، وكان محمود عباس أعقل من أن يفعل ذلك أو يحاوله، وكانت هناك محاولات مصرية لإسكات حماس عن طريق ما يسمى بالتهدئة ولكن في كل الأحوال كان الفشل هو العنوان الرئيسي وظلت حماس تمثل خطراً كبيراً، وهكذا لم يعد هناك سوى وسيلة واحدة هي استدراج حماس في عملية سياسية تستهدف مشاركتها في السلطة، ومن ثم للحفاظ على تلك المكاسب السياسية فإن حماس سوف تسكت عن قضايا مثل إزالة إسرائيل أو تحرير كامل التراب الفلسطيني أو الاكتفاء بتحرير غزة والضفة، وسواء غيرت حماس ميثاقها أو لم تفعل، فإن الواقع العملي سيقود إلى هذا حتماً ومن ثم فإن المخطط يستهدف أن تسير حماس في نفس خط فتح، ويصبح سقفها هو سقف فتح وأوسلو ولكن المشكلة أن عمر حماس في هذا الصدد لن يكون طويلاً لأسباب كثيرة تتصل ببنية حماس ذاتها، وبخطابها السياسي الذي صعدت جماهيرياً من خلاله، وتتصل بالسياسات الدولية والإقليمية التي لا ترحب عادة بنجاح اتجاه إسلامي في السلطة، ولن تكون حماس قادرة على إنجاز ما فشلت فيه فتح أصلاً لأسباب تتصل بإسرائيل ذاتها التي لن تتخلى عن الأرض والنفوذ إلا في إطار خطة إسرائيلية داخلية باتت معروفة تدور حول حماية إسرائيل خلف الجدار العازل وتهديد القدس، ومنع عودة اللاجئين.

من المعروف مثلاً أن عناصر في السلطة هي التي سعت إلى حماس ترجوها المشاركة في الانتخابات، ومن المعروف أن فساد السلطة، وتفكك فتح، والانفلات الأمني، كلها تقود إلى أن تحصل حماس على نسبة كبيرة من الأصوات تؤهلها للمشاركة في السلطة أو ربما الانفراد بها، ويمكننا في هذا الصدد أن نفهم اعتراض الكونجرس الأمريكي والمتحدث الرسمي لأوروبا، وما يسمى باللجنة الرباعية " الولايات المتحدة - أوروبا - روسيا - الأمم

المتحدة " على مشاركة حماس في الانتخابات كان لا يستهدف منع حماس من المشاركة بقدر ما يستهدف دفع حماس في اتجاه نوع من التنازل عن الثوابت شيئاً فشيئاً لترضي هؤلاء أو تقلل اعتراضاتهم، لأن قرار منع حماس من المشاركة لن يكون بهذه الطريقة طبعاً، بل عن طريق السلطة، والمناورات وتأجيل الانتخابات - وحتى تأجيل الانتخابات لن يحل المشكلة، بل يزيد حماس قوة، ويدفع في اتجاه المزيد من تفكك حركة فتح، وهكذا فإن كل التحركات الأمريكية والأوروبية بل وتصريحات قادة إسرائيل، ومنع دعاية حماس في القدس، والتلويح بمنع المقدسيين من المشاركة في الانتخابات ثم الموافقة الإسرائيلية على ذلك وغيرها، كلها تزيد في شعبية حماس، وتستفز الشارع الفلسطيني لاختيار ممثلي حماس، بالإضافة طبعاً إلى قدرات حماس التنظيمية والمالية المعروفة.

نحن إذن أمام سيناريو مركب لنزع سلاح حماس، أو إسكات الطريق الفدائي داخلها عن طريق الصندوق الزجاجي، فمن البديهي أن المشاركة في السلطة تفرض نوع من الخطاب والسلوك والمسئولية والأعباء لا يتناسب مع خط المقاومة المسلحة ولا على إعلان ضرورة تحرير كامل التراب الفلسطيني أو إزالة إسرائيل ولن نقول يقتضي الاعتراف بإسرائيل - ضمن أي حدود - لأننا نتمنى ألا تصل حماس إلى هذه الدرجة في غضون سنوات.

من المهم هنا أن نقرر أن حق حماس في المشاركة في الانتخابات وحقها في السلطة هو حق بديهي، ومن حقها أن تجتهد في هذا الصدد، ولكن مع الأخذ في الاعتبار الظروف الموضوعية وإذا كان المتحدث باسم حماس قال أنه معجب بالنموذج المصري الإخواني في المشاركة في الانتخابات، فالأمر مختلف تماماً لأن فلسطين كلها محتلة، والضفة الغربية لا تزال محتلة، وغزة محتلة عن بعد، وهناك مشكلة اللاجئين والقدس، التي تقول كل القوى السياسية

في إسرائيل بلا استثناء أنها موضوعات منتهية فلا عودة للاجئين، ولا تنازل عن تهويد القدس أما المفاوضات ففي قضايا أخرى لا يمكن أن تكون حماس وهي التي ستتورط في المفاوضات قطعاً إذا شاركت في السلطة، لا يمكن أن تكون حماس قد قدمت كل هؤلاء الشهداء ونفذت كل تلك العمليات الاستشهادية من أجل تلك الموضوعات المحدودة بسقف معين لا يرضي ولا يلبي طلبات الشعب الفلسطيني، لا في هذا الجيل، ولا في الأجيال القادمة بالطبع، ونلاحظ هنا أن السلطة عندما كانت تتفاوض في ظل رفض حماس والجهاد لأوسلو لم تكن هذه السلطة تزعم أنها تتفاوض باسم كل الفلسطينيين، بل قطاع منهم، وهذا بالطبع لم يكن ليرضي إسرائيل ولا أمريكا، اللتان تريدان حلاً يحظى بغطاء فلسطيني كامل، لقطع الطريق على الأجيال القادمة لفتح الموضوع من جديد، وهو ما يتحقق بمشاركة حماس في السلطة!!.

في الإطار نفسه يجب أن نقرر أن حماس التي قاطعت انتخابات ١٩٩٦ بدعوى أنها تحت سقف أوسلو من حقها أن تقول أن الظروف تغيرت، وأن معاناة الشعب الفلسطيني الهائلة وفساد السلطة والانفلات الأمني يقتضي أن تغير حماس موقفها وتشارك، وهو كلام صحيح ولكنه تكتيكي، وفي حساب المصالح والمفاسد، فإن المشاركة في السلطة، تعني إما قبول حماس بدولة إسرائيل، والاعتراف بها، والتفاوض معها، وإما رفض ذلك كله - ونتمنى هذا - ولكن ساعتها يكون الإسرائيليون أكثر قدرة على إقناع أمريكا وأوروبا والعالم على ضرب الشعب الفلسطيني بلا هوادة، لأنه تحكمه جماعات إرهابية وفق المنظور الدولي السائد حالياً!!.

* * *

نتائج الانتخابات الفلسطينية

العالم قلبه على حماس

وحماس قلبها على الحجر

الفوز الذي حققته حماس في الانتخابات التشريعية الفلسطينية - رغم أنه كان بديهياً ومتوقعاً - إلا أنه أشبه بالزلزال الذي ضرب المنطقة والعالم!! فالمتابع لردود الأفعال الإقليمية والدولية يدرك على الفور أن معظم ردود الأفعال كانت غير منطقية ولا تتسق مع أفكار من صدرت منهم تلك الردود، وربما يكون فوز حماس كشفاً جديداً لحقيقة باتت بديهية وهي ازدواج المعايير الغربية ونفاق الديمقراطية الغربية.

فازت حماس بـ ٧٦ مقعداً من مجموع المقاعد البرلمانية الفلسطينية وعددها ١٣٢ مقعد مقابل ٤٣ لفتح والباقي ١٣ مقعد للمستقلين ولقوى أخرى، مع الأخذ في الاعتبار أن هناك ٤ مقاعد أخرى لمستقلين كانوا مدعومين من حماس يمكن أن تضاف إلى رصيد حماس فيصبح المجموع ٨٠ مقعداً أي حوالي ٦٠.٦ %، أما فتح فحوالي ٣٢.٦ % والباقي للقوى الأخرى الهامشية ٦.٨ %.

الحقائق الجديدة - القديمة فيما يخص أي انتخابات تجري في العالم العربي تقول أن أي انتخابات نزيهة أو شبه نزيهة ستأتي بالاتجاه الإسلامي، وأنه إذا كانت الديمقراطية هي الطريق الذي سوف يسود فإن الإسلاميين قادمون بلا أدنى شك، وهذا بالطبع يضع تحدياً كبيراً أمام القوى الغربية لأنها تدعو إلى الديمقراطية ولا تريد الإسلاميين، ومن تلك الحقائق أيضاً أن القوى العلمانية من ليبرالية ويسارية... إلخ هي قوى هامشية إلى أقصى درجة، وأن خطابها مرفوض في الشارع العربي، وفي الحقيقة فإنه رغم عشرات السنين من غسيل المخ العلماني للناس، والديكتاتورية لإكراه الناس على تبني حجج تغريبية فإن

الأمة في أي فرصة تلفظ تلك القشرة الخارجية وتعود إلى جوهرها الإسلامي، وهذا يتفق مع حقائق التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والسياسة، لأن هناك اتصال ثقافي وحضاري لمدة ١٤٠٠ سنة لا يمكن إزالتها إلا في زمن مماثل وجهد مماثل، وهذا مستحيل علمياً وموضوعياً، ومن ثم فإن الوجدان الإسلامي للناس أمر بديهي. أضف إلى ذلك أن النخبة الحاكمة في المنطقة اقترفت من الأخطاء والفساد ما يكفي لرفضها ولكن الرفض وحده لا يكفي لتفسير الظاهرة، لأن الرافضون كان من الممكن أن يتجهوا إلى قوى سياسية أخرى غير الإسلاميين، وبالنسبة للحالة الفلسطينية فإن الفشل في تحقيق أي شيء على المستوى السياسي، وتعنت إسرائيل وأمريكا وعدم احترامهما للسلطة بقيادة أبي مازن، بالإضافة إلى عوامل الفساد، الفلتان الأمني، إحساس الناس بضرورة التغيير كلها صبت في خانة حماس على أنه لو لم يكن الوجدان الجماهيري إسلامياً لكانت أصوات الفلسطينيين قد ذهبت إلى القوى الليبرالية " قائمة حنان عشراوي مثلاً " أو القوى اليسارية " قائمة أبو علي مصطفى مثلاً " وغيرها، ولكن يضاف إلى ذلك أن هناك تهديداً قد صدر من أوروبا وأمريكا بقطع المعونات عن الفلسطينيين في حال انتخاب حماس، وبديهي أن الشعب الفلسطيني يعاني معاناة شديدة من الفقر وانهيار الوضع الاقتصادي والبطالة، ومن ثم فهو في أمس الحاجة إلى تلك المعونات، ومع ذلك اختار الانحياز إلى حماس وهذا يعني أن الشعب الفلسطيني فضل مشروع المقاومة ومشروع الإسلام على أي مكاسب أخرى، ويعني أن خيار الكفاح المسلح له شعبية في الواقع الفلسطيني على عكس ما يروج البعض عادة - وأن تنازل فتح عن ثوابتها التاريخية، وتغيير ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية وغيرها من التنازلات لم تساهم في رفع شعبية فتح بل على العكس، وهذا درس ينبغي أن تفهمه حركة حماس ذاتها، فلا تسير في نفس طريق فتح لتصل إلى نفس النتيجة.

نتائج الانتخابات هي بالضرورة نقطة مفصلية، ونوعية ولها ما بعدها، فهناك تغير موضوعي ونوعي حقيقي في البنية الفلسطينية، فبعد ١٢ عاماً في السلطة لفتح، وبعد عشرات السنين من تركيبة فلسطينية معينة - تبرز حماس على رأس المنظمات والجماعات الفلسطينية الفاعلة، وهذا يعني إعادة خلط كل الأوراق، داخل البنية الفلسطينية وداخل إسرائيل ذاتها، وداخل الإقليم كله. وفي الحقيقة فإن فوز حماس له ميزة كبرى وهي أنه نزع وإلى الأبد إمكانية نزع سلاح قوى المقاومة عن طريق السلطة أو الحرب الأهلية ولكنه يرفع سقف المخاطر بالنسبة لعدوان إسرائيلي متوقع ومستمر، ولكن الأيام علمتنا أن الأعداء غير قادرين على كسر إرادة المقاومة، والوحيد القادر على ذلك هي السلطات المحلية ومن ثم فإن حماس الآن - هي حركة تحظى بمشروعية انتخابية شعبية، وهذا يعني أن من الصعب على أمريكا وإسرائيل وأوروبا التعامل معها على أنها حركة إرهابية لأن ذلك يعني أن الشعب الفلسطيني شعب إرهابي أعطى ٦٠ % منه أصواتهم للإرهابيين، وهو أمر صعب بالطبع، ومن المعروف أن كل من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا كانت قد وصفت حماس بأنها منظمة إرهابية ووضعتها على لائحة الإرهاب، والتكتيك الأمريكي الأوروبي الإسرائيلي الآن - مع بعض الاختلافات بين تلك الدول طبعاً - هو محاولة استدراج حماس عن طريق العصا والجزرة، بمعنى التلويح لها بإمكانية التعاون معها وإعطائها مساعدات إذا ما تخلت عن خيار الكفاح المسلح، واعترفت بإسرائيل، وتخلت عن الجناح العسكري... وبعد فترة ستكون المطالب هي التخلي عن القدس، وموضوع اللاجئين وهكذا، فمن ينزل خطوة سينزل باقي الخطوات، ولعل متابعة ردود الأفعال الصهيونية والأمريكية والأوروبية يؤكد هذا التكتيك، إيهودا أولمرت مثلاً صرح " إن إسرائيل لن تتفاوض مع حكومة فلسطينية لا تكافح الإرهاب، وإن إسرائيل قد تلجأ إلى إجراءات أحادية لرسم الحدود النهائية بدون التفاوض مع الحكومة الفلسطينية "

أما الرئيس الأمريكي جورج بوش فقال " أنه لن نتعامل مع حكومة لها فصيل مسلح!!".

والغريب أن أمريكا وإسرائيل من قبل تعاملتا مع حركة فتح رغم أنه كان لها فصيل مسلح نفذ عمليات استشهادية وفدائية ضد إسرائيل " كتائب شهداء الأقصى ".

من الصعب بالطبع التكهن النهائي بمسيرة الحوادث، ولكن أعتقد أن سقف المعطيات الإسرائيلية منخفض للغاية، فإسرائيل بكل أحزابها تتفق على أن القدس عاصمة موحدة لإسرائيل، وأنه لا عودة للاجئين، ولا انسحاب من كل أراضي ١٩٦٧، ومن ثم فإن المتاح أمام حماس لا يمكن أن يكون مقبولاً لحماس لأنه من الصعب عليها مهما كانت براجمتية حماس أن تقبل بأقل مما رفضه عرفات، وقبولها بذلك يفقدها جماهيرها فوراً، ويخرجها مباشرة من الجغرافية السياسية للشعب الفلسطيني، وهكذا فإن الأمور تسير باتجاه الصدام صحيح أنه يمكن أن تتوقف العمليات الاستشهادية لحماس بعض الوقت، ولكن ذلك سيزول بسرعة، وتتجه الأمور للصدام، ومن ثم تصبح السلطة والأجهزة الأمنية والحركة كلها في صعيد واحد في هذا الصدام، وهذا يزيد الفلسطينيين قوة، ويؤكد من جديد على النبوءة القرآنية بأن الصدام على أرض فلسطين حتمي، وأن إسرائيل ستزول في النهاية على يد المجاهدين، سواء كانوا من حماس أو من يأتي بعدهم والله تعالى أعلم.

* * *

اقتحام سجن أريحا

رسالة إسرائيلية دموية إلى حماس

تفاصيل عملية اقتحام القوات الإسرائيلية لسجن مدينة أريحا بالضفة الغربية والذي تم الثلاثاء ١٤ مارس ٢٠٠٦، يعطي الكثير من الدلالات ويضع النقاط الحقيقية فوق الحروف الحقيقية بعد أن امتلأت الساحة بحروف مزيفة ونقاط مزيفة!!.

العملية تمت بدءاً من صباح الثلاثاء وانتهت حوالي الساعة السابعة مساءاً وقد قامت قوات من الجيش الإسرائيلي مدعومة بحوالي ٢٠ دبابة إسرائيلية باقتحام سجن أريحا المركزي شرق الضفة الغربية الذي كان يوجد به أحمد سعدات الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين و٣ من كوادر الجبهة المتهمين باغتيال وزير السياحة الإسرائيلي السابق رحبعام زئيفي، وقد حدث تبادل لإطلاق النار وانتهى الأمر إلى القبض على أحمد سعدات ورفاقه وحوالي ١٥٠ سجيناً فلسطينياً آخر، كما تم سقوط ثلاثة قتلى و٣٥ جريحاً في العملية، وتهديم مبنى المخابرات الفلسطينية المجاور للسجن وتدمير أجزاء كبيرة من السجن، وقامت الطائرات الإسرائيلية بمتابعة العملية قبل بدأها وأثناء العملية إلى أن انتهت.

هذه العملية استهدفت حسب الرواية الإسرائيلية القبض على أحمد سعدات و٣ من رفاقه المتهمين باغتيال وزير السياحة الإسرائيلي السابق رحبعام زئيفي الذي اغتالته الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين رداً على قتل إسرائيل للأمين العام السابق للجبهة " أبو علي مصطفى "، وبديهي أن هذا الأمر لا يفسر العملية بالكامل، لأن هؤلاء المسجونين المتهمين باغتيال وزير السياحة الإسرائيلي السابق رحبعام زئيفي،

موجودون في المكان نفسه منذ عدة سنوات، ولو كانت إسرائيل تريد القبض عليهم مثلاً لنفذت هذه العملية من قبل، إذن لا بد من البحث عن سبب جديد أثار رغبة إسرائيل في تنفيذ العملية في هذا التوقيت. مع الأخذ في الاعتبار العديد من العوامل التي كانت ضد تنفيذ العملية في هذا التوقيت.

فمن ناحية فإن العملية ولا شك تضعف السيد محمود عباس أبو مازن رئيس السلطة وتضعه في موقف محرج، وتضطره اضطراراً إلى قبول ما لم يكن قادراً أو راغباً على قبوله من قبل من برنامج وسياسات حماس!!. والعملية بالضرورة تضع حماس نفسها في مأزق، فلن تعد قادرة على تقديم أي تنازلات جديدة تجاه إسرائيل، وسوف تضطر اضطراراً إلى نوع من التشدد لإرضاء الشارع الفلسطيني الذي التهب التهاباً بعد الحادث، وأن إسرائيل في طريقة تنفيذها للعملية تعمدت تحقيق أكبر قدر من الإهانة للسلطة الفلسطينية، فهي قد هدمت مبنى المخابرات الفلسطينية وهدمت واجهة مبنى المقاطعة - رمز السلطة - وأجبرت العديد من قوات الأمن الوطني الموجودين بمقر المقاطعة في أريحا على الاستسلام وخلع ملابسهم - لاحظ خلع ملابسهم بما لها من دلالة على الذل والمهانة - قبل أن تسمح لهم بمغادرة مبنى المقاطعة، وهو أمر يدفع الشعب الفلسطيني وكل قوات حماس وفتح والناس العاديين إلى التشدد ومن ثم منع أي حكومة من تقديم تنازلات.

العملية تمت أيضاً رغم وجود ما يسمى بالتفاهمات والهدوء والتي كانت دولة بحجم مصر طرفاً فيها، الأمر الذي يعني أن إسرائيل أسقطت الإحراج عن مصر، وأعطتها الفرصة لعدم القيام بدور التهدئة أو تليين سياسات حماس.

أن العملية أثبتت أن هناك تفاهم سري وعلني بين إسرائيل والولايات المتحدة وبريطانيا، فالحراس البريطانيون المسئولون عن حماية السجن انسحبوا قبل العملية بقليل الأمر الذي يؤكد وجود تواطؤ، ومن ثم فإن الذين يتحدثون عن دور أمريكي أو أوروبي لم يعد متاحاً لهم ذلك، فلن يعطي الإسرائيليون شيئاً للفلسطينيين اللهم إلا القتل والذل والمهانة، ولن يفعل الأمريكيون والأوروبيون شيئاً للفلسطينيين اللهم إلا التواطؤ مع إسرائيل!!.

وهكذا فإن قيام عناصر فلسطينية سواء من كتائب تابعة للجبهة الشعبية أو غيرها من اختطاف رهائن أمريكيين أو أوروبيين هو مؤشر على ما يمكن أن يصل إليه الفلسطينيون من قناعات و سياسات.

ونلاحظ هنا أن الرئيس محمود عباس كان قد حاول الوصول إلى صيغة لتهدئة العملية، ولو باستمرار الحصار الصهيوني للسجن دون اقتحامه، واتصل بكل الطرفاء الأمريكيين والبريطانيين والمصريين... الخ دون جدوى. بمعنى أن إسرائيل ضربت الحائط - وهي تضربه دائماً - بما يسمى بالشرعية الدولية، واحترام السلطة الفلسطينية، واحترام التعهدات مع مصر، وهي تتواطأ مع الأمريكيين والأوروبيين ونلاحظ أيضاً أن العملية تمت بأوامر مباشرة من رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت، الذي من المرجح أن ينجح في الانتخابات الإسرائيلية ومن ثم يشكل الحكومة الجديدة، وسواء كان فعل ذلك لزيادة فرصته الانتخابية أو فعل ذلك لأن تلك هي سياسة، فإن المحصلة تقول أن الشعب الصهيوني يريد ذلك، وأن تلك السياسة هي مؤشر على التصرفات والسياسات الصهيونية في المرحلة القادمة على المدى القصير والمتوسط على الأقل!!.

الرسالة الإسرائيلية - من قبل العملية وأثناءها وبعدها - هي واحدة تقول أن إسرائيل لا تقبل بأقل من الانبطاح الكامل من الحكومة الفلسطينية، وهي لن تعطي شيئاً لفلسطين غرب الجدار العازل ولا تقبل عودة اللاجئين، ولن تتخلى عن القدس... إلخ، ولكن الجديد في الأمر أنها تقول بتلك العملية أنها ستفعل ما تريد بصرف النظر عن مشاعر الفلسطينيين والعرب والمسلمين، السلطة والمعارضة في فلسطين، وبالتفاهم مع أمريكا وبريطانيا وأنها تقدم رسالة بالدم والدبابات والطائرات وأوامر رئيس الوزراء، ومباركة كل الشعب الصهيوني إلى كل القوى في فلسطين بما فيها حماس، بأنها لن تقبل بأقل من الانبطاح الكامل وأنها لا ترى في الفلسطينيين شريكاً كبيراً أو صغيراً، وأنها لن تتورع - ولن تراعي أي توازنات - في عملياتها، وإذا كانت قد اقتحمت سجناً وقبضت على أحمد سعدات وهو نائب في البرلمان الفلسطيني، فيمكن أن تفعل الشيء نفسه - وقد هددت بذلك - وتقتحم مقر مجلس الوزراء الفلسطيني وتقبض أو تغتال إسماعيل هنية، ويمكن أن تقتحم مقر البرلمان الفلسطيني وتهدمه على النواب من حماس وفتح وغيرهم، وتقتل من تريد وتترك من تريد بعد أن تجرده من ملابسه!!.

المعنى واضح لا يحتاج إلى تحليل، وهو رسالة يجب أن تفهمها حماس، وعلى حماس أن تدرك أن أسلوب الكلام المطاط الذي يحمل أكثر من معنى لن يجدي مع إسرائيل، وأن حماس لو غسلت ثوبها الثوري سبع مرات إحداهن بالتراب فلن ترضى عنها إسرائيل وأمريكا، بل أكثر من ذلك فإن إسرائيل ستغتال قادة حماس واحداً بعد الآخر لأن اليهود لا يتركون ثأرهم، وأن كل أجندة السياسة والمرونة والتلويح بالتفاهم هو طريق إلى الفشل وطريق إلى الموت وطريق إلى السجون الإسرائيلية وليس طريقاً إلى الرأي العام الدولي، ولا الرأي العام

الإسرائيلي ولن يؤدي إلا إلى خسارة الدنيا والآخرة.

على كل حال فإن النتيجة المباشرة للعملية، ستدفع الجبهة الشعبية إلى إدراك عبث الانتخابات، ومن ثم تراجع سياساتها وتلحق بأسلوب حركة الجهاد الإسلامي الفلسطيني، وقطاعات كبيرة من فتح ستفعل نفس الشيء وخاصة المجاهدون منها، وقطاعات أكبر من قواعد حماس ستكتشف أن الطريق إلى الحقوق لا يمر من بوابة البرلمان بل بوابة الاستشهاد وصحيح أن هذا الأمر سيظل حبيس صدور أبناء حماس ولكنه سيخرج يوماً بعد اكتشاف إفلاس أسلوب المفاوضات بكل درجاته وأنواعه.

والأكثر خطورة أن قواعد الشعب الفلسطيني سوف تدرك ذلك، فتندفع إلى الاتجاهات الراديكالية، فإن لم تكن هذه الاتجاهات قادرة على التعبير عنها، ستظهر منظمات جديدة قادرة على تحمل هذا المتغير الكبير والنوعي وفي كل الأحوال فعلى حماس تحديداً أن تفهم الرسالة أو تتخلى عن وهم إمكانية تحصيل الحقوق بغير الاستشهاد والمقاومة.

* * *

فوز الإسلاميين في الانتخابات: المعاني والدلالات

النتائج التي حققتها حركة المقاومة الإسلامية "حماس" في الانتخابات البرلمانية الفلسطينية وكذا النتائج التي حققتها جماعة الإخوان المسلمين في مصر مؤخرا في الانتخابات البرلمانية، كلها تشير إلى حقيقة باتت بدهيّة، وهي أن الخيار الأساسي للجماهير هو البديل الإسلامي.

حركة حماس فازت بنحو(٧٦) مقعداً من عدد المقاعد، وإذا قلنا: إن هذا يرجع إلى أن الجماهير الفلسطينية اختارت مشروع المقاومة فهذا صحيح،

ولكنه وحده لا يصلح تفسيراً؛ لأن هناك أيضاً قوائم تتقدم للانتخابات وتحمل مشروع المقاومة أيضاً، مثل قائمة "أبو علي مصطفى" الجبهة الشعبية، ومع ذلك لم تحظ إلاّ بثلاثة مقاعد أي أقل من ٢ % من تلك المقاعد... وإذا قلنا: إن الناخب الفلسطيني قد نفد صبره تجاه الفساد والمحسوبية التي تفشت في حركة فتح والسلطة السابقة، فإن هذا أيضاً لا يصلح وحده تفسيراً، ذلك أنه كان بوسع الناخب الفلسطيني أن يُعاقب فتح والسلطة السابقة بالتصويت لقوائم أخرى عناصرها غير متهمة بالفساد مثل قائمة مصطفى البرغوثي أو قائمة حنان عشرواي، وكل منهما حصل على أقل من ٢ % من المقاعد. وإذا أخذنا في الاعتبار أن الدعاية الفتحاوية ركّزت في فترة الانتخابات على أن فوز حماس يعني ضياع المساعدات ورفض الدول المانحة إعطاءها للسلطة إذا سيطرت عليها حماس وهذا صحيح إلى حد كبير، لأدركنا أن الناخب الفلسطيني كان يدرك أن اختيار حماس ربما لا يساهم في حل مشاكله الاقتصادية بل يزيدها تعقيداً.

وهكذا فإن العامل الأساس في المسألة كان التوجهات الفكرية لحركة حماس، أي أن الناخب يريد من يقدم له البديل الإسلامي بشموليته وعدالته ووسطيته.. وذلك ما عكسته نتائج الانتخابات الأخيرة في كل من مصر والأراضي الفلسطينية المحتلة. فالجماهير ليست حجارة تتحرك بقوانين الكيمياء والفيزياء، بل هي محملة بالثقافة والحضارة والوجدان والعاطفة الإسلامية، ومن ثم فهي تختار من يتمسك بهذه الهويّة، وترفض من يتعالى عليها أو يرفضها، ثم إن الجماهير تدرك أن هناك معركة حقيقية مع أمريكا وإسرائيل، والجانب الديني والحضاري والثقافي فيها جانب جوهري وكبير وخطير، وتدرك أن من يستطيع مواجهة هذا التحدي لا بد أن يكون إسلامياً، واستشهادياً، وإلا فإن الهزيمة مؤكدة!!

وفي الواقع فإن الأمر لم يقتصر على الانتخابات التي أُجريت في الفترة الأخيرة، بل إن هذا الأمر هو قاعدة تعمل دائماً مع بعض الاستثناءات طبعاً، وكل قاعدة لها استثناءات؛ فالجبهة الإسلامية في الجزائر فازت في انتخابات ١٩٩٠، وحزب العدالة والتنمية التركي فاز وشكل الحكومة، وكذلك الانتخابات في البحرين والسعودية... إلخ ومن ثم فإن أي انتخابات نزيهة يتاح لها أن ترى النور في عالمنا العربي والإسلامي سوف تفرز الإسلاميين بدون أدنى شك.

من ناحية أخرى نجد أن الأحزاب العلمانية تعاني من تراجع وتفكك وخاصة اليسارية والليبرالية منها، وفي مصر مثلاً فإن الانقسامات والانقلابات الحزبية أصبحت سمة معظم هذه الأحزاب؛ فحزب الوفد المصري حقق نتائج متواضعة في الانتخابات الرئاسية ثم البرلمانية، ثم حدثت به انشقاقات وصراعات ربما تؤدي إلى إعلان وفاته، أو تضعه في خانة الأحزاب الهامشية!!

فوز حماس هل هو مأزق؟

يرى البعض أن فوز حماس هو مأزق حقيقي لها وللإسلاميين؛ لأن حماس لن تستطيع تحقيق انتعاش اقتصادي للفلسطينيين بسبب قطع المساعدات من تلك الدول المانحة التي تشترط الاعتراف بإسرائيل وإلغاء العمل الفدائي ونزع سلاح حماس بالتالي، وأن حماس سوف تضطر بسبب براجماتيتها إلى نوع من الاعتراف بإسرائيل، والقبول بأسلوب فتح ومن ثم تسير في نفس طريق فتح التي بدأت مقاتلة، وانتهت إلى التفاوض والتنازلات والاعتراف بإسرائيل... إلخ وفي رأيي أنه على الرغم من براجماتية حماس فإن ما تطرحه إسرائيل أقل مما يمكن أن تقبل به حماس، وإذا كان ياسر عرفات قد رفض في كامب ديفيد تسوية هي أفضل بالضرورة مما تقدمه إسرائيل حالياً؛ فإن من الصعب على حماس القبول بأقل مما رفضه عرفات، ومن ثم فإن هدوءاً مؤقتاً ومناورات

قصيرة العمر ستشهدها الساحة، ثم لا تلبث الأمور أن تعود إلى حالة صدام حتمي، ستضطر حماس معها إلى رفع سقف خطابها والعودة إلى الكفاح المسلح، وهذا بدوره سيرفع سقف خطاب القوى الإسلامية المؤيدة لحماس خارج فلسطين. إن فوز حماس سيؤدي في النهاية إلى التأكيد على الخطاب المرتفع للحركات الإسلامية، وليس العكس، بسبب الموقف المبدئي لقادة الكيان الصهيوني القائم على روح العدوان والاستئصال والعنصرية.. وأن القوى الإسرائيلية من اليسار إلى اليمين كلها تتفق على خطوط حمراء، مثل: عدم عودة اللاجئين، واعتبار القدس عاصمة موحدة "لإسرائيل"، وعدم العودة إلى حدود ١٩٦٧، وهي أمور لم تقبلها فتح في الماضي، ولن تقبلها حماس بالتأكيد، وهي التي برهنت على المبدئية والثبات على المواقف، و رفض المساومة على الحقوق والمقدسات.

* * *

مستقبل السودان بعد موت جارانج

مساء السبت ٣٠ يوليو ٢٠٠٥ اختفت الطائرة الأوغندية الرئاسية التي تقل جون جارنج - قائد الحركة الشعبية لتحرير السودان، والنائب الأول للرئيس السوداني - من على شاشات الرادار، وتأكّد في وقت لاحق سقوط الطائرة بالقرب من الحدود السودانية الأوغندية بجبال الأماتونج، وأن جارانج قد لقى مصرعه، وعقب الإعلان عن الحادث اندلعت أعمال شغب واسعة النطاق في أكثر من مكان في السودان وخاصة في العاصمة الخرطوم على يد الجنوبيين من أتباع جارانج، وقُتل العشرات، وجُرح المئات وتضرّرت الكثير من السيارات والمحال التجارية، وهذا يعني مباشرة أن الثقة بين الجنوبيين والحكومة السودانية ليست قوية بما يكفي على الرغم من توقيع اتفاقيات، ووصول هذه الاتفاقيات إلى حيز التنفيذ؛ بل وتعيين جارانج نفسه نائباً للرئيس

السوداني، وهذا يعني أن كثيراً من الغيوم تحيط بالعلاقة بين الحكومة السودانية والحركة الشعبية لتحرير السودان، أو على الأقل أنصارها في السودان، الأمر الذي يستدعي أخذ ذلك في الاعتبار، وبديهي أنه لا مصلحة للحكومة السودانية - التي تحيط بها المشاكل من كل جانب - أن تُفتح جبهة الجنوب من جديد، باغتيال جارانج، وأعتقد أنها حزينة لوفاته؛ لأنه هو نفسه كان أحد أهم العوامل المساعدة في إمكانية الاستمرار في عملية السلام مع الجنوب، وإذا كان لا بد من البحث عن مستفيد من هذا الموت الذي جاء بسبب سقوط الطائرة لسوء الأحوال الجوية؛ فإن المستفيد من ذلك هو ما يسمى "بجيش الرب"، وهي حركة تمرّد ضد الحكومة الأوغندية كانت تحظى سابقاً بدعم الحكومة السودانية على أساس أن الحكومة الأوغندية بقيادة "موسيفيني" كانت تدعم الحركة الشعبية لتحرير السودان، وكانت هناك صداقة قوية وزمالة دراسة بين كل من جارانج وموسيفيني.

حركة "جيش الرب" يقودها (جوزيف كوني) وهي تتواجد في الحدود بين السودان وأوغندا، وبسبب تعقيدات وتركيبات معينة متصلة بعوامل كثيرة منها ما هو عرقي أو ديني أو سياسي فإن تلك الحركة تتواجد أيضاً في جنوب السودان، وكانت تدخل في معارك مع أنصار جارانج، المهم أن جارانج توعّد تلك الحركة بالتصفية، وقال قبل يوم واحد من موته: "إنه سوف يقضي على جيش الرب"، وقام بزيارة الرئيس الأوغندي موسيفيني للاتفاق على هذا الأمر، والتنسيق معه بهذا الصدد.

وأياً كان الأمر فإن جارانج مات على متن طائرة أوغندية، وهو الذي نجا من عشرات المحاولات لقتله إبان الحرب التي شنها على الحكومة السودانية لمدة (٢٢) عاماً متصلة.

بين جارنج وسيلفا كير

موت جارانج يفتح الباب على مصراعيه لكثير من الاحتمالات؛ فلا شك أن جارانج كان شخصية تاريخية، تمتلك خبرات وعلاقات متراكمة، ولا شك أن ثقله التاريخي والسياسي كان في حد ذاته ضمانة لتنفيذ الاتفاق الذي أُبرم بين الحكومة والحركة، فهل ينجح خليفته (سيلفا كير) الذي اختارته الحركة ليقودها بعد جارانج في أن يملأ الفراغ؟ وهل يكون (سيلفا كير) قادراً على ضبط التفاعلات في الجنوب، أم أنه هو نفسه ليس متحمساً بما يكفي لاستمرار الوحدة بين الشمال والجنوب.

وللإجابة عن هذا السؤال ينبغي في البدء معرفة جزء من تركيبة جارانج نفسه، ومن ثم معرفة أثر غيابه على المسألة.

ومن المعروف أن جارانج بعد إنشائه الجيش الشعبي لتحرير السودان، استطاع أن يقيم علاقات قوية مع الكنائس الغربية، والولايات المتحدة، وإسرائيل، وتقلّب في تحالفاته بين الشيوعيين والأحزاب السودانية مثل الأمة والاتحادي وحتى الترابي، وهو معروف بالقدرة على المناورة السياسية، وفي السنوات الأخيرة دخل في مفاوضات - تحت ضغط غربي وأمريكي - مع الحكومة السودانية انتهت بتوقيع اتفاق ٩ يناير ٢٠٠٥، وقد بدأ هذا الاتفاق حيّز التنفيذ في ٩ يوليو حيث تم تعيين جارانج نائباً للرئيس السوداني، أما خليفته (سيلفا كير)، فهو أيضاً من قبائل الدنكا، ولكنه يميل إلى تفعيل خيار الانفصال - وكان يختلف مع جارانج حول قضايا الاهتمام بالقضايا الشمالية أو دعم متمردي دارفور وشرق السودان، ولكن جارانج كان يحب استخدام هذه التحالفات في اكتساب أوراق ضغط، ومن المعروف أيضاً أن (سيلفا كير) له توجّهات دينية كنسية أكبر من جارانج.